

## أدب الاعترافات : قراءة نظرية للماهية وإشكالية المصطلح

### أ- وردة لعراب

### جامعة الطارف

I – ماهية الاعتراف و إشكالية المصطلح :

#### 1- ماهية الاعتراف :

لا يبتعد مصطلح الاعتراف في مفهومه الاصطلاحي عن مفهومه اللغوي، فيعرفه محمد التنوخي على أنه : "مصطلح أدبي يعني الإقرار و الإفضاء، وليس اعترافا بجريمة ، و هو نوع من الترجمة الذاتية التي يروي فيها المؤلف قصة حياته ، بطريقة قصصية مثل اعترافات القديس أوغسطين ، قصة حياة للمازني ، و يوميات نائب في الأرياف للحكيم ، و هي أرقى من قصص الاعترافات المبثولة في المجالات السوقية" (1) .

و هو تعريف يبدو عليه الخلط الواضح ، و عدم التمييز بين الاعتراف ، و بين السيرة الذاتية ، و بينه و بين اليوميات و المذكرات ، و لعله الأمر الذي تنبّهت إليه هادي عبد الفتاح شاكر، حين رأت أن " صاحب الاعتراف يتحدث بالدرجة الأولى من أخطائه و ذنوبه و هو يختلف عن السيرة الذاتية التي تهتم بحياة الإنسان في جميع جوانبها ، و لذلك من الأدق إخراج اعترافات القديس أوغسطين من باب السيرة الذاتية " (2)

و هو الأمر ذاته الذي فصل فيه "فيرو" حين عرف "الاعتراف" على أنه قول للحقيقة المطلقة ، و هو يختلف عن السيرة الذاتية التي تترك مكانا واسعا للاستفهام ، و عن المذكرات التي يكون صاحبها دقيقا حول الأحداث (3)

فهذه المفاهيم الدلالية ، يكون الاعتراف مصطلحا أدبيا ، يعتبر أحد أشكال النثر التخيلي ، أو "نثر تخيلي يتخذ شكل السيرة الذاتية" (4) يروي أحداثا و حقائق بصفة صادقة ، صريحة ، تبسط الذات أمامها بعد أن أعيدت صياغتها من جديد ، بلغة أدبية راقية تخلق متعة في نفس القارئ عن طريق فكرته و فنياته ، و يتمكن من جذبه إلى عالمه و هو يصور حياة كاتبه في أدق تصرفاته و أرق أحاسيسه . فليس الاعتراف حكاية تسرد حوادث مبتذلة أو تسرد حياة الشخص كيفما شاء واتفق ، و لكنه محدود بأطر فنية عامة ، تميزه عن بقية الأشكال القريبة منه : سيرة ذاتية، مذكرات، يوميات... ، فكما في " الرومانس و الرواية فإن للاعتراف شكله القصير الخاص به ، و هو المقالة المألوفة ، و كتاب *Livre de bonne Foy* من تأليف Montaigne هو اعتراف مؤلف من مقولات لا ينقصها إلا السرد المتصل الذي يميزه الشكل الأطول ، و خطة " مونتين " في الاعتراف تضاهي أعمال التخييل المؤلفة من قصص قصيرة تشكل في النهاية شيئا قريبا من الرواية أو الرومانس ، كما في *The Dublin ers* لجويس أو *De Cameron* لبوكاشيو. (5)

و يحدده أكثر إشارة إلى التحديد الصريح من قبل الكاتب بأن ما يكتبه "اعترافات" فلكي يسمى نص نثري ما "اعترافات" لا بد أن يكون مؤلفه قد قصد به أن يكون كذلك ، و يمكن تحديد مقصدية الكاتب من هذا من مفهوم "العقد" الذي صاغه "لوجون" و الذي يقتضي بأننا نستطيع أن نحدد مقصدية الكاتب من خلال العثور على أي عبارة أو مقطع في النص يصرح فيه الكاتب لقارئه بأنه يقوم - لسبب أو لآخر - بكتابة قصة حياة (6) - على شاكلة ما - كما أن طبيعة " المعاهدة النصية " (7) تعتمد على هوية الأسماء الواردة في النص ، فلكي يصبح النص سيرة ذاتية أو أي شكل من أشكالها يجب أن تتوثق العلاقة ما بين الكاتب والروائي و الشخصية الرئيسية ، و تتحد هويتهم في اسم المؤلف الذي يظهر على الكتاب ، و تلك الهوية المتحدة هي التي تخلق المعاهدة بين القارئ و المؤلف ، و ليس استخدام ضمير المتكلم أو الغائب الذي يحول النص إلى سيرة ذاتية (8).

و نلاحظ هنا إشارة صريحة من لوجون إلى ثانوية الضمير النحوي في تحديد هوية النص ، إذ أن من جهة استخدام الضمير في السرد ، فلدينا تعددية في استعمال الضمائر ما بين ضمير الغائب (هو) و ضمير المتكلم (أنا) و ضمير المخاطب (أنت) و لكن

الأكثر استعمالاً في الكتابات الذاتية هو استعمال ضمير المتكلم ، و هو ليس قاعدة بالضرورة و إنما هو بمثابة العرف ، لكنه في الشكل الاعترافي يصبح ضرورة لا بد منه ، و حتمية لا مفر منها ، إذ أن ضمير الغائب يحيل على الموضوع في الوقت الذي يحيل فيه ضمير المتكلم (أنا) على الذات ، كما أن ما يتميز به هذا الضمير من جماليات - كما عددها عبد الملك مرتاض - فهو ضمير للسرد المناجاتي ، السرد القائم على ما أطلق عليه المنولوج الداخلي Le monologue intérieur ، الذي يستطيع التوغل إلى أعماق النفس البشرية ، فيعربها بصدق و يكشف عن نواياها بحق ، و يقدمها للقارئ كما هي ، لا كما يجب أن تكون ، كما يشير إلى أن " الأنا " معادل لتعرية النفس و لكشف النوايا أمام القارئ<sup>(9)</sup> و هي التي يجب أن تكون في أدب الاعتراف ، وهي "مواقف لا يمكن أن يستعمل فيها ضمير الغائب".<sup>(10)</sup>

و أيضا تحديد " باعث الكتابة " هذا الباعث الذي له دور في تنظيم الاعترافات بأن تكون إما اعترافات تلقائية متشظية تخدم موضوعا واحدا ، أو أن تكون تعاقبية ممتدة بشكل تقليدي : طفولة ، شباب فكهولة (إلى المرحلة التي تتم فيها الكتابة) و "أثناء السرد تتعدد المواضيع و تظهر عدة دوافع".<sup>(11)</sup>

هذا إذا قلنا بالشكل الخاص و القالب الفردي لأدب الاعتراف . أو على شكل نتف متناثرة هنا وهناك ضمن فضاء السيرة الذاتية إذا اتفقنا مع أمل التميمي على أنه " لا يوجد كتاب اعترافي من أول صفحاته إلى آخرها ، لأنه إذا كان كذلك يدخل القارئ دائرة الارتباك والريب من تصديق صاحبها " <sup>(12)</sup> ، أو مادة ماثلة في ثانيا القصة أو الرواية على حد تعبير التنوخي " إنه تعبير وجداني صادق ، يبسطه المؤلف في قصته أو روايته "<sup>(13)</sup>

كما أن العملية الاعترافية ، و الكشف عن الذات ليست عملية ميسورة و متاحة لكل أحد ، بل فيها محاورة و مدافعة بين الإنسان و بين نفسه ، و بينه و بين من سيتلقى عمله ، فيها كره و فر بين الرغبة الجادة في الصدق ، أو التحفظ و التكنم على أسرارهِ و عيوبهِ . و أخيرا ينطلق دون مبالاة للمواضيع الاجتماعية و القيم الأخلاقية .

و لعل ما سبق من مفاهيم و رؤى نقدية يجمعها تعريف الباحث و الناقد العراقي محمد صابر عبيد لأدب الاعتراف حين يراه : " سرد نثري استعادي ، يندفع فيه الراوي الذاتي إلى منطقة مثيرة و حساسة و خطيرة في سيرته الذاتية ، بأسلوب اعترافي صريح ، من دون مبالاة للمواضيع الاجتماعية و القيم الأخلاقية ، التي يمكن أن تخل بها أو تجرحها ، و بجرأة تتفوق على أي حرج يمكن أن يضعه في موضع اجتماعي لا يحسد عليه.

ويستخدم السرد الاعترافي الآليات و التقنيات و الطرائق ذاتها التي يستخدمها السرد السير ذاتي ، غير أنه يتدخل على نحو أعمق في طبقات الشخصية الجوانية ، و لاسيما طبقة المسكوت عنه مظهرها إياها على السطح النصي ، كما يتطابق مع السرد السير ذاتي في آلية التطابق بين الراوي و المؤلف و الشخصية ، و بهذا يمكن القول أن السرد الاعترافي هو سرد سير ذاتي يتقصد الإثارة و النقد الذاتي اللاذع و تعرية الذات ، مما يجعله يدور على المستوى النوعي في فلك السيرة الذاتية إلا أن الاحتكام إلى الميثاق الذي يحدده الكاتب في وصف صورته الذاتية هو الذي يحدد النوع السير الذاتي بين الاعتراف و السيرة الذاتية " <sup>(14)</sup> .

فعلى الرغم من أن الهيكل العام لكل أشكال السيرة الذاتية يكاد يكون واحدا و ذلك "بحكم انضواءها تحت قوانين جنس أدبي سردي واحد"<sup>(15)</sup> إلا أنها بانتقالها من شكل لآخر ، تقترب في كل انتقال جديدة إلى اتضاح أكبر من المعالم و خصوصية أكثر واستقلالية في الشكل الأدبي فالاعتراف من أكثر أشكال السيرة الذاتية تخصصا و تمحورا حول الذات، نجده يتخلص من

التشتت و الاستغراق في موضوعات أخرى ، ليمركز في بؤرة محددة تمثل ملفات من سجل الحياة و قد سطرت بمداد من الصراحة و الأمانة و الصدق ، فترة من فترات الحياة بما حفلت من خير و شر ، من فضيلة و رذيلة ، من لذة و ألم ، إنما التجربة الشخصية ، و البنى التحتية ، و الطبقات الجوانية ، و ما يتصل بها من رؤى و أفكار أسهمت زمنيا في تشكيلها .

و هذه العملية الاعترافية التي يعتمد عليها كاتب السيرة أساسا لعمله الفني، تخضع في مرحلة من مراحل الكتابة إلى إعادة صياغة تقدم فيها الأحداث بشكل فني ، لا تاريخي محض أي أن عنصر " الخيال الفني " لا بد وأن يتدخل هنا في تعميق الحدث و تشكيله

تشكيلا فنيا يتلاءم مع الوضع الفني للسيرة عامة و الشكل الاعترافي خاصة ، و ذلك حتى لا يتحول العمل من عمل سيري إلى عمل روائي أو قصصي ، فيدخل في نظم و قوانين سرد خاصة تختلف عن قوانين الفن السيري<sup>(16)</sup> و هذا يستلزم أن يكون المبدع حذرا من السقوط في مشكلتين أولهما : احتمال السقوط في التاريخية المجردة في رواية الأحداث كما هي مما يفقدها أصالتها الفنية و ثانيهما : احتمال الإسراف في إعادة خلق الأحداث الماضية فتصبح عملا من أعمال التخيل .

و لنجاح العمل الاعترافي يجب أن يرتكز على شبكة من العناصر الفنية ، إذ هذا النوع من الكتابة السير ذاتية يكتب مرة واحدة و لا يتكرر ، و لذلك يكون النص الاعترافي عند صاحبه الذي كتبه و كان في الوقت نفسه موضوعا له ، نصا مهما في حياته الاجتماعية والأدبية ، بواسطته يتوج مرحلة من العمر ليست بقصيرة ، و هو يعلم أنه لن يعود لها مرة أخرى، لأن ما أراد أن يقوله قد قاله ، و ما من حاجة إلى أن يعيده ، فالمروي هنا - بما أنه قد كان - لا يتبدل و لا يتغير و لا يقبل الإضافة أو التغير ، أي أن المبدع كمن يقف أمام مرآة (جاك لكان) يتعري أمام نفسه وأمام الآخرين مرة واحدة ، و إن أعاد الكرة فلا تنطلي اللعبة على أحد ، و لن يصدق أحد ذلك الكلام الذي يقوله .

فالكتابة الاعترافية كتابة غير عادية بالنسبة للقارئ و للكاتب و هي على هذا النحو نراها تخضع لشروط خاصة تتصل بفعل الكتابة لا بالكتابة ذاتها ، بالمناخ الوجودي و الثقافي الذي يحيط بها لا بإنشائها، وهوما يجعل منها شكلا أدبيا متميزا، فالحكي عن الذات لن يجد قبولا لمجرد أنه اعتراف و سرد لأحداث ، لكن الشكل الفني الذي يتخذه هذا الحكي يعطيه قابلية خاصة لدى القارئ ، أي أن يكون بناؤها الفني واضحا، مرسوما بدقة، وأن يكون الأسلوب مصاغ صياغة أدبية محكمة، وأن ترتب الأفكار والأحداث بمهارة ، بحيث لا تسمح بخلق فجوات تخلخل الكيان العام .

و لأن الشكل الاعترافي شكل خاص متميز عن غيره من أشكال الكتابة السير ذاتية فإن هذا التميز يدفعه أكثر إلى "الدقة و التخصص في طريقة انتقاء الأحداث و روايتها، و طبيعة اللغة الساردة أو الوصفة" <sup>(17)</sup>

و إذا كانت السيرة الذاتية عامة - بمختلف أشكالها - تطرح سؤالا مهما يتعلق بالمنهجية و الفوائد التي تنطوي عليها على صعيد نظرية الأدب بالرغم من أنها جزء لا يتجزأ منها، إذ أن " استخدام السيرة كإطار سيساعدنا في دراسة أشد مشكلات التطور وضوحا وأدقها في تاريخ الأدب - النمو ، النضج ، و الانحطاط الممكن في فن الكاتب " <sup>(18)</sup> فرما سيكون السؤال أكثر أهمية و إشارة إذا ما كانت القضية متعلقة بالسيرة الذاتية الاعترافية و التي منهجيتها تتحدد في محور واحد و هو الشخصية بكل مساوئها و انحرافاتها، فالمنهجية هنا إذا ما نظرنا إليها على أساس الفائدة تشدد حدة و إشكالا ، خاصة و أنه وفقا للإستراتيجية التي تعتمدها المذاهب الأدبية و النقدية في تقدير العلاقة الأدبية بين النص الإبداعي و حياة المؤلف ما يزال هذا الموضوع محل خلاف كبير في الآراء ، فأصحاب النظرية الشكلية Formalism يرون أن "الفن الصحيح منفصل تماما عن الأفعال و الموضوعات التي تتألف منها التجربة العملية في الحياة، فالإبداع الأدبي و الفني عالم قائم بذاته ، و هو ليس مكلفا بتقديم نسخة أو صورة مكررة للحياة بصفتها الأصل ، أو مضطرا للاقتباس منها لأنه تابع لها ، ذلك أن قيم الفن لا يمكن أن توجد في أي مجال آخر من مجالات التجربة البشرية ، فالفن ينبغي أن يكون مكتفيا بذاته ، إذا أراد أن يكون فنا ، و أن يقوم بوظيفته النابعة من طبيعته " <sup>(19)</sup> ، فيما يرى أنصار النظرية التعبيرية Expressionnisme " أن مهمة الفن عامة ، و هي تنهض على إخراج التجربة الحياتية الواقعية في شكل جمالي مكثف و متبلور يعبر عن جوهرها الحقيقي ، و هذا الشكل ينهض على قاعدة أن كل فن تعبير ، و لكن ليس كل تعبير فن بالضرورة، فإذا لم يتكامل هذا الشكل فالتعبير عن المضمون يظل ناقصا و متبلورا (... ) و قد سادت هذه الفكرة حتى أواخر القرن التاسع عشر ، و نتج عن ذلك أن دخلت السيرة الذاتية أو الخطابات المتبادلة بين الأدباء في مجال الإبداع الفني . " <sup>(20)</sup>

فكاتب الاعتراف لو بالغ في نشر أشياء تتصل بالجنس أو الدين فإن عمله سوف يخرج من دائرة الأدب الاعترافي الذي يهدف إلى التوبة و الندم و التطهر، ليدخل دائرة الأدب الفضائحي<sup>(21)</sup> هذا الأدب الذي يتلقفه القراء الفضوليون المهتمون بهذا النوع من الكتابة أكثر من الاهتمام بشخصية صاحب الاعتراف ، فالسيرة الاعترافية تتيح للمتلقي " أن يخرج من قراء هذه السيرة إما مزهوا

بصاحبها ، أو أن يكون ناقما على تبججه و غروره و بنظري لا يمكن أن يكون هناك كتاب اعترافي من أول صفحاته إلى آخرها و إلا أدخل القارئ في دائرة الارتباك و الريب من تصديق صاحب السيرة . " (22)

وعليه فالكتاب لابد أن يفكر طويلا قبل أن يقرر المغامرة و يكتب في هذا النوع ، هذا فضلا عن أن التجربة الاعترافية تتحول إلى شيء مختلف تماما عندما تنتقل من وضعها في الذهن إلى نص عبر اللغة .

## II- إشكالية المصطلح :

لعلنا أدركنا مما سبق أن للاعتراف خصائص تميزه ، من أهمها : التميز الحقيقي في الإفضاء و البوح ، و الخروج عن الإلف و العرف في التكم و التستر ، و هي الخاصية التي خلقت للمصطلح في الوسط الثقافي العربي إشكالية ، إذ نجد قضية تأسيس هذا المصطلح وتأصيله على وجه التحديد قد واجهت تلقيا متذبذبا ينجح إلى الرفض و النفور أحيانا ، و إلى التعظيم أحيانا أخرى . و لعلنا نرد هذه الإشكالية إلى مسائل ثلاث رئيسية<sup>(23)</sup>:

- 1- معرفية : و ترتبط بوضعية المصطلح بشكل عام في الوطن العربي .
- 2- إيديولوجية : و تتعلق بخلفية الكتابة الاعترافية .
- 3 - تأثيره : و تتعلق بخصوصيات المصطلح عند الغرب ، و إشكالية انتقاله إلى العرب.

### 1-المسألة المعرفية:

إن إشكالية تأصيل المصطلح في المجتمع الثقافي العربي من أهم القضايا الفكرية التي تعيق صيرورة التطور المنهجي في التعامل مع مختلف المنتجات الثقافية ، إذ عرف المصطلح دائما إشكالية تميزت بانعدام الحسم و الغموض ، و البحث الدائم عما يقابل هذا المصطلح أو ذاك في الموروث أو في النص العربي ، فافتقرت هذه المسألة بالخوف من التحديد في وسط يتسم بالرجح و بالجنوح إلى الرضا بالسائد المتفق عليه خاصة و أن أدب الاعتراف مسيحي الأصل ، فسيكون من غير المجدي أن يتصنع الكتاب مادة لا تشكل جزءا من ذاكرتهم أو أسلوب حياتهم ، فحتى المسيحي ليس بمقدوره أن يمثل هذه الحالة و هو يعيش في بيئة مسلمة ثقافية ، و بالتالي الركون و الدوران في حلقة حلزونية ينتظم وفقها التفكير و المعرفة العربيين عموما .

### 2- المسألة الإيديولوجية :

إن إسقاط الإيديولوجية على أدب الاعتراف ، ترتبت عليه خصوصية النظرة النقدية إلى ظاهرة الكتابة الاعترافية وما استتبع ذلك من رفض و قبول ، هذه النظرة التي تزرع الشك في نفوس بعض الكتاب إزاء تقبل السحاحة النقدية ، إبداعهم ، فيعرف بعضهم عن الكتابة خوفا من النقد لا قصورا في مواهبهم الإبداعية ، في حين يزداد إنتاجهم في أنواع أدبية تباعد عن أدب السيرة عموما و الاعتراف خصوصا ، إذ هناك ثلة من النقاد لم يكتسب هذا النوع من الأدب مشروعيته النقدية لديهم ، باعتبار المضمون الذي لا يعكس سوى المشكلات الخاصة بالأنثى و البنات الجوانية للذات ، وقد ترتب عن هذه النظرة المتحيزة ذات الطابع الإيديولوجي أن أضحت فرص الاهتمام النقدي بهاته الكتابة ضئيلة جدا و ذلك بحجة أنها قضية غربية ، و على نظام المقولة القائلة : " لا يفنى و مالك في المدينة" فبما أنها قضية غربية فالغرب أولى بها .

و ثلة احتكمت إلى المعيار الأخلاقي في التعامل مع هذا الأثر الأدبي ، خاصة عندما يعرف على أنه " سيرة ذاتية يطرح فيها الكاتب نفسه على حقيقتها ليراه عارية دون زيف ، أي أنه تاريخ حياة الأديب بكل مساوئها و انحرافاتها ، و بكل إيجابياتها و انجازاتها ، بشكل يعني تعريضها تماما " (24)، فعد هذا الأدب بناء على هذا من الأدب المكشوف ، فرفض اجتماعيا لأنه - حسب رأيهم - " يهدف إلى الإثارة في الغالب و ليس وصولا إلى الحقيقة و معرفة الذات ، التي هي من أصعب الأشياء التي يتوصل الإنسان إليها " (25) . فموقف النقاد المهجومي جعل المكتبة العربية تفتقد إلى هذا النوع من الأدب، و إن وجد أو كان استقبل بحزة عنيفة أساها ثلاث تساؤلات<sup>(26)</sup>:

أ- ما القيمة الفنية و الأخلاقية في طرح المساوى و الانحرافات التي تعرض لها أو ارتكبتها الأديب شخصيا ليقراها الجمهور على المستوى العام ؟ .

ب- ما الفائدة من أن يتعرف القارئ العادي على محطات الوحل و آثام النفس الذاتية ؟.

ج- هل يمكن الحديث عن النصوص التي تتخذ من الحياة الباطنية لمؤلفيها موضوعا لها ومرويا أساسيا عن شكل أدبي ، بل هل يرقى ما كتب من سيرة ذاتية تاريخية بهذه الصورة إلى مستوى الفن ؟ .

لقد تعامل هؤلاء النقاد مع هذا النوع من الكتابة من مفهوم الثقافة العربية على أنه أدب فضائحي ، لأن الكتمان و المواربة صفتان مألوفتان في عرفنا و تقاليدنا الأدبية الصارمة ، و هما بالتالي يمنعان الكتاب من الالتزام بمنهج المكاشفة و الصدق والصراحة ، و هي خصائص لا بد من توافرها في مباشرة مثل هذا النوع من الكتابة . كما تعاملوا معه على أنه جريمة ، جريمة لأنه : " يتناول المحرمات من تقاليد و أعراف و انتهاك المقدس من التقاليد التي لا تزال جزءا من ديمومة المجتمعات العربية الشرقية . " (27)

فلا مكان لاعترافات أدبية صارخة لدينا كما يقول شاكر عيسى : " فالاعتراف في العرف الأدبي يخرج المادة رغما عنها من حقل الأدب إلى حقل الفضيحة ، و هذا ما تبرهن عليه مبيعات كتاب مثل رسائل غادة السمان و غسان كنفاني والتي قرئت بوصفها فضيحة و ليس أدبا ، والأديب الحق و الكبير في مجتمعنا العربي هو فحسب من يعلن و يعبر ، و يصير لسان حال الجماعة ، حتى و إن استخدم تجاربه مواربة مادة للكتابة . " (28)

و ثلة ثالثة لم ترفض الاعتراف بصفة مطلقة ، و إنما وسعت من حدود النظر إليه و تخطت الرؤية التي ربطته بالنموذج و المفهوم الغربي ، الذي انتحى تحت وطأها منحى خاص فارتبط بشكل مباشر بالجمهور بالمخازي و الفضائح لاسيما الجنسية منها ، بكل صلافة و جلالة ، مع أن الكلمة واسعة شاملة تشتمل هذا النوع و غيره من أوجه النقص الذي يسعى الفرد إلى ستره و حفظه بعيدا عن الأنظار ، فبراها - مثلا- الأستاذ أحمد أمين أنها أكثر اتساعا و شمولاً إذ يقول : " اعتاد الكتاب أن يقصروا الاعتراف على المسائل الجنسية التي اعتمدها جان جاك روسو و أمثاله ممن قالوا الاعترافات ، والقنسس الذين يصغون إلى هذه الاعترافات ، أما الكلمة نفسها فواسعة شاملة تشتمل هذا النوع ، و تشمل غيره من الفضائل التي اكتسبها الإنسان في حياته بعنف و مشقة ، عليه ، يفترض أن يتحدث الإنسان فيها على فضائله و حسناته من غير تخرج أو مبالغة في التواضع . " (29)

و في نفس المعنى يقول عبد الرحمان شكري : " ليس فريضة على صاحب الاعترافات أن يذكر كل نقائصه ، هل فعل ذلك "روسو" أو " جيني " أو " شاتوبريان ؟ " و مهما عظم نصيب صاحب الاعترافات من الصراحة ، فلا بد أن يكون عنده من الجبن و الحزم و احترام النفس ما يغريه بإخفاء كثير من نقائصه و معائبه " (30) .

و يتفق الأستاذ عباس محمود العقاد معهما ، بل أنه يعطى للمصطلح دلالة مغايرة تخرجها من سيطرة الدلالة الغربية التي تقتن بالجمهور بالسوء و التبجح بالفضائح و حكي ما يندى له الجبين إلى دلالة فاضلة ، تكون معها المادة الاعترافية مادة للتفكير العميق ، و نوعا من التعريف الذاتي المفيد ، و بها يتعرف الناس على بعضهم البعض ، فيفهمون بعضهم البعض ، يقول : " لن يكون الاعتراف اعترافا في رأي بعضهم إلا إذا كان اعترافا بأمر يغلب على الناس إنكاره و كتمانته ، فلا يفهمون من الاعتراف إلا أنه إعلان لخبينة في النفس تشين صاحبها ، و تدعوه إلى إخفائها ، لكنها على التحقيق مغالطة من مغالطات "العرف" التي تواضع أبناء آدم و حواء على سنة الكذب و الرياء ، فهم جميعا سواسية في الخطايا و العيوب التي يخفونها ، و لا يعترفون بها ، و متى صدق عليهم قول المسيح : " من لم يخطئ منكم فليرحمها بحجر " (...) و لكني لا أرى من الإنصاف أن استهدف للحجارة و عندي حجارة مثلها أقابل بها كل حجر بعشرة من أمثاله حين أريد و حين أستطيع ..

و أنا بحمد الله لا أريد و لا أستطيع (...) فلتنكح حجارتي محفوظة في محررها الأمين ، و ليكن اعترافي نوع من التعريف الذي يفيد ، أما تبادل الحجارة طردا و عكسا و عكسا و طردا فهو عبث لا يعي به راحم و لا مرجوم ، و هو كذلك لا يفيد ، أعترف

بالخصائص النفسية التي تدل الناس على بعض الحقائق في الطبيعة الإنسانية ، و ذلك لا ريب أجدى من الاعتراف بالعيوب و الخطايا التي يتشابه فيها أبناء آدم وحواء على السواء أو على مقربة " (31) .

هذا و كذلك ثمة فارق مهم - يقول أنصار هذا الرأي - بين الأديب العربي و الأديب غير العربي في مجال الكتابة حول الذات .مختلف أشكال هاته الكتابة ، و يفترض على الكاتب عن الذات أن ينقل الحقيقة عن حياته و الواقع الذاتي لنفسه و بيئته من خلال الأحداث الخارجية ، إلا أن هذا المطلب عسير جدا ، وقد يكون متعذرا بل أكثر من متعسر عند الشرقي المسلم الذي أوصاه ربه بالستر على نفسه إذا ضعف ، و أن يطلب الستر من ربه في حياته ، و يوم يقوم الأشهاد (32) و هو- أبو عبد الرحمان بن عقيل - الذي اجتهد في تباريحه على أن يسجل ذكرياته بأمانة إلا ما لا يحل الجهر به ، لأنه يرى أن الجهر بالسوء لا يحبه الله ، و لأن اعترافات النصارى ليست من ديننا ، إذ أن بعض الغربيين أنفسهم يعترفون بما وصل إليه مجتمعهم من انتكاسة أخلاقية في مجال الحديث عن النفس ، و يؤكدون في الوقت نفسه صعوبة التخلي عن هذا المنحى لطبيعة الشعب الغربي ، حيث يقول ردولف زلهايم : " إنا ليصعب علينا نحن الغربيين أن نتصور أنفسنا في موقف المسلمين هذا ، فلقد فقدنا في عصرنا الحاضر هذا الحس المرهف، وتفتشت لدينا غوغائية لا تقدر و لا ترعى حرمة الأدب و الاحتشام و الحياء " (33)

و عليه فالتعري الخالص و على إطلاقه أمر مرفوض ، و يخرج الكلمة عن الأمانة التي وضعت من اجلها ، كما أن الباحث والمتلقي العربي لا ينتظر من كاتب السيرة الذاتية أو حتى الاعتراف اعترافا على الطريقة الغربية ، ذلك لأن هناك فرقا واضحا ، و كبيرا بين الجرأة والصراحة و بين التعري الفاضح و الوقاحة ، حتى أن أحمد علي آل مريع هذا الناقد والباحث السعودي يلتمس نمودجا مغايرا للاعتراف ، نمودج تصنعه الثقافة العربية و تجود به السير التراثية الحديثة في الأدب الملتزم بالقيم الأخلاقية و الدينية ، و تحديد ضوابط تسهل وتسوغ انتقاءه ، و تعين على تحديد و تميزه ، و من ثم تيسر قراءته و معالجته ، خاصة و أن النمودج الاعترافي موجود فعلا ، و لكن بسمته المغايرة ، ثم أن العمل على الكشف عنه تعد خطوة قوية لمعرفة رؤية أدب و أدباء . و يبدى في دراسته لأدب السيرة من منظور إسلامي عدم ارتياحه لمصطلح (اعتراف) في دراسة النماذج الشرقية ، لأنه مصطلح قد اكتسب باستعماله مقابلا ل Confession بعدا فضائليا ، و اقترح لفظة مكاشفة / مكاشفات ، هو إنما اختارها الخمسة أسباب هي :

♦ عربية الكلمة و فصاحتها .

♦ قرب المعنى اللغوي من المعنى الاصطلاحي .

♦ المصطلح بكر في حقل الدراسات النقدية و يسهل تبني إطاره الفلسفي بما يوافق خصوصية الإبداع العربي ، و يكون استعماله بدون هالات مشوهة أو اضطراب يقضي إلى الخطأ و الخلط .

♦ ليس في المصطلح أثر من أثار النمودج الغربي .

♦ التوافق الطيب و المعبر بين صيغة مصطلح (مكاشفة) و بين عملية الكشف عن الذات .

لعلنا نجد علاقة حميمة بين منطق التفكيك و مرمى كتاب أدب الاعتراف ( بمدلوله الغربي أو العربي ) ذلك أن هذه الكتابة تحاول الانزلاق من سلطة الثبوت الذي يفقدها حرارة الكينونة و التميز ، حين تصير الكتابة ولادة و انبعاثا ، و ذلك حين تنتهج مبدأ الخرق والتمرد و الثورة على الأعراف و كسر القيود و التغلب على صعاب الواقع و التطلع إلى التحرر ، تحديا لكل رموز الكبت الثقافي، من أجل البحث عن الذات للتوصل عبرها إلى الحقيقة -الوعي - و البحث عن الذات يقتضي في مرحلة أولى إعادة النظر بكل الصنيع والقيم السائدة ، التي تفرض نفسها كمعايير مطلقة للواقع الاجتماعي .

3- المسألة التأثيرية: خصوصية المصطلح عند الغرب و إشكالية انتقاله إلى العرب :

إن الحديث عن خصوصية الكتابة الاعترافية عند الغربيين تختلف عن خصوصية الكتابة الاعترافية عند العرب ، ذلك أن الظروف التاريخية و الإبداعية و الاجتماعية تختلف ، فقد ارتبط مصطلح "الاعتراف" في الغرب بحركات التطهير إذ كان الباعث من الأساس دينيا ذلك أن محاسبة النفس و الإيمان بالأخوة بين البشر ، و بتساوى النفوس كلها قيم تدعوا إليها المسيحية ، فسهلت هذه

البواعث في ظهور الاعترافات و السير الذاتية الشهيرة التي تهدف إلى تنقية الذات و تعريتها طلبا للعفو والمغفرة .و إذا كان للكتابة علاقة قوية بالسائد في الحضارة التي تنتمي إليها فمن غير المستساغ ظهور إبداع أدبي أيا كان جنسه : شعر ، قصة ، رواية ، سيرة ، في ظل الجهل والتخلف الذي خيم على العالم العربي ردحا من الزمن ، و يزداد تعقيدا مع جنس أدبي له علاقة بالأنا و الذات و الشعور و العاطفة ، و يصبح الأمر مستحيلا كون الكتابة اعترافية . ففي الوقت الذي دخل فيه الشرق منطقة الظل ، دخلت الغرب عصر النهضة ، و الإحساس بالذات فيما نما و تزايد حيث سعى الفرد الأوربي إلى تغيير وضعيته و إلى تفكيك قصره المفاهيم و الإشكاليات التي موقعته في منطقة الهامش بناء على إدراك وجوده الفعلي . و قد ساعدته عوامل مترابطة: من نشوء مدن كبرى ، و نمو للطبقات الوسطى ، و هيمنة أنواع العمل المهني و الوظيفي المعتمد على الكفاءة الفردية على بروز الإحساس بذاته بقوة.<sup>(34)</sup>

هذا الإحساس الذي لم يكن مفروضا من الخارج ، أو ناتجا منفصلا عن إرادته بقدر ما كان قناعة فردية ، ذاتية و ثورة نابعة من الداخل تجسدت أساسا في كتابات مثل "اعترافات" confessions للقدّيس أوغسطين Saint Augustine و "حياتي" Ma vie لما رغري كامب Margery Kamp\* و "اعترافات" "Confessions" لجان جاك روسو و Jean Jacques Rousseau و اعترافات مدمن أفيون إنجليزي "The confessions of an Engliche opiuo one لتوماس دي كونسي Thomas de Quencey ، إذ أرست هاته الاعترافات المعالم التي ينفرد بها فن السيرة الذاتية الغربي كما عملت على البحث في خصوصيات الأنا و إشكاليات الذات ، وكيفية تقديمهما كقضية تطرح لتعالج ، كما وجهوا عناية بالغة إلى مرحلة النضج و الازدهار في حياة الإنسان وهي الأربعين من العمر وأطلقوا عليها لفظ Cime و معناه الذروة، أو فترة النضوج في الحياة<sup>(35)</sup> فقدموا نقد لاذعا للذات و تعريتها تماما و تحليلها تحليلا دقيقا ، لكل تفاصيل الأحداث و المشاعر الخفية و كل المواضيع أينما وجدت و مهما فعلت ، بكل صراحة في غير تخرج أو موارد قاصدين ذلك من أجل مراجعة الضمير و محاسبة النفس ، و أيضا من أجل البحث عن التبرير لأخطائهم متمنين أن يفهموا و لا يهتموا مؤكدين براءتهم الداخلية<sup>(36)</sup> ورغم أن هذه الاعترافات أدت إلى هزة عنيفة داخل المجتمعات الأوروبية إلا أنها ساهمت في إلقاء الضوء على الانحرافات الموجودة داخل المجتمع مما دفع علماء النفس و التربية والاجتماع و القانون إلى التفكير في تنظيم المجتمع و وضع الوسائل الأفضل التي تؤدي إلى رفعه السلوك الإنساني وتحت على العلاقات السوية بين البشر<sup>(37)</sup> و بالتالي فإن أهم ما يميز دلالة "الاعترافات" عند الغرب هو ارتباطها بالوعي ، والنمو الدائري اللذان أسهمت المسيحية في تطويرهما ، و أسهمت كذلك في تكوين جمهور يقبل على قراءة هاته الآثار<sup>(38)</sup> كما أن ظهور الموقفين العصريين : العلمانية و الفردانية الخاصة في التاريخ الأوربي الثقافي ، هذه الفردانية عند اصطباغها بصبغة إنسانية في عصر النهضة كانت تفسيرا لظهور أعمال "سيلبي لبني" و "مونتاني" ثم بتطورهما و اصطباغهما بصبغة جديدة منذ بدايات الرومانتيكية هو الذي كان حاسما بحق في ازدهار السيرة الذاتية في أواسط القرن الثامن عشر ، و يضيف "جورج ماي" أن السيرة الذاتية و إن فقدت الباعث الديني على كتابتها و أصبحت علمانية أو لائكية، فقد واصلت الاستفادة من السنة الثقافية المسيحية التي تطورت السيرة الذاتية في إطارها و استفادت خاصة من تساوي الأرواح.<sup>(39)</sup>

فالسيرة الذاتية الغربية استفادت في تطورها من الفردانية و الرومنطيقية ، اللتين تطورتا أيضا في إطار العقيدة المسيحية، إذ أن الفردانية تقوم بأكملها على الإيمان بالفرد و بالأنا عكس ما كان في العقيدة المسيحية " من مبدأ معاد لهذه السيرة الذاتية اللائكية ، إذ أن المسيحي غير مطالب بمعرفة نفسه كما تدعو إلى ذلك الحكمة اليونانية و إنما مطالب بمعرفة الله "<sup>(40)</sup> .

فلقد سعت الكتابات الذاتية في الغرب منذ البداية إلى بناء إيديولوجياتها و كتابة الشكل الأدبي الذي يستوعب هواجسها و معاناتها على المستويين الموضوعاتي و اللغوي: و أنتجت جنسا أدبيا يستوعب مفهوم " : المسؤولية التاريخية للأشكال ، فعلى المستوى الموضوعاتي تحدثت عن أحداث الحياة و أخبارها ، تسرد أعمال الفرد و آثاره ، فتذكر طفولته و شبابه و كهولته و ما جرى له من

أحداث تعظم و تضؤل تبعا لأهميته لتدخل على نحو أعمق في الطبقات الداخلية الجوانية التي يغلب السكوت عنها لتظهر على السطح بأسلوبية خاصة تضمن لها صناعة نص سردي متكامل ذي مضمون مقنع و مسل ، رغبة منها في تأسيس عالم يعيها . يتضح مما سبق أن إشكالية المصطلح في الفضاء الثقافي الغربي ، لم ترتبط بالجانب التأسيسي بقدر ما ارتبطت بمسألة التأصيل و تأكيد الخصوصية من خلال النصوص ذاتها ، إذ لم تطرح مساءلات إمكانيات الاعتراف بالمصطلح أو رفضه أو النفور منه بالشكل نفسه الذي حدث و يحدث عند العرب ، و يعود هذا -في نظرنا- إلى طبيعة الموضوعات التي تطرحها النصوص الذاتية، و التي تقوم أساسا وفق وجهة نظر خاصة و ليس وفق وجهة نظر عامة، مما ساعد الفضاء الثقافي و القارئ و الناقد الغربي على التعود على مثل هاته النصوص ، فالذات متحررة مقارنة بالذات العربية و وعيها بقضيتها يتعلق بها بالدرجة الأولى .

#### الهوامش

- (1) محمد التنوخي ، المعجم المفصل في الأدب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج1، ط1 ، 1993، ص 109 .
- (2) تهاوي عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي، فدوى طوقان، جيرا إبراهيم جيرا، إحسان عباس نموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، ط1، 2002، ص 30.
- (3) فليب لوجون ، السيرة الذاتية ، الميثاق و التاريخ الأدبي ، ت: عمر الحلي ، المركز الثقافي العربي بيروت، (دط) 1994، ص10.
- (4) نور ثروب فراي ، تشريح النقد ، ص 426 . و يقصد فراي بمصطلح "التخييل" : الأدب الذي كون أساس التقديم فيه الكلمة المطبوعة أو المكتوبة مثل : الروايات و المقالات.
- (5) نور ثروب فراي، المرجع نفسه ، ص، ص 426، 327.
- (6) فليب لوجون ، السيرة الذاتية، الميثاق و التاريخ الأدبي، ص 12.
- (7) لمعاهدة النصية: هي تحديد هوية النص بأنه سيرة ذاتية أو أي شكل من أشكالها من خلال النص ذاته، دون اللجوء إلى عوامل خارجية لإثبات هذه الهوية.
- (8) فليب لوجون، المرجع السابق ، ص 12.
- (9) عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب عالم المعرفة ، الكويت ، 1998، ص، ص 184 ، 185.
- (10) عبد الملك مرتاض ، المرجع نفسه ، ص 189.
- (11) أمل التميمي ، السيرة الذاتية النسائية فبالأدب العربي المعاصر ، ص 28 .
- (12) أمل التميمي ، المرجع نفسه، ص 177.
- (13) محمد التنوخي ، المعجم المفصل من الأدب ، ج1، ص 109.
- (14) محمد صابر عبيد، مظهرات التشكل السير الذاتي، قراءة في تجربة محمد القيسي السير ذاتي ص، ص 148-149
- (15) محمد صابر عبيد ، السيرة الذاتية الشعرية ، قراءة في التجربة السيرية لشعراء الحداثة العربية ، عالم الكتب الحديث ، ط1، 2007، ص 9 .
- (16) محمد صابر عبيد ، المرجع السابق ، ص 11 .
- (17) محمد صابر عبيد ، المرجع السابق ، ص 12 .
- (18) رينه و ليك و أستين وارين ، نظرية الأدب ، ص 82
- (19) نبيل راغب ، موسوعة النظريات الأدبية ، دار نوبار للطباعة ، القاهرة ، ط1 ، 2003، ص 91 .
- (20) نبيل راغب ، المرجع نفسه ، ص 210.



- (21) لقد تم تعريف الأدب الفضائحي و تميزه عن أدب الاعتراف في هامش رقم 13.
- (22) أمل التميمي ، السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر ، ص 176، 178 .
- (23) اتضحت لنا هذه المسائل الثلاث من خلال تتبع أسباب الغياب النسبي لأدب الاعتراف في الثقافة العربية .
- (24) أحمد علي آل مريع ، رؤية إسلامية لأدب السيرة الذاتية ، مجلة الأدب الإسلامي، العدد 58، مكتبة العبيكان وفروعها ، الرياض ، 2008 ، ص 6 .
- (25) حبيب كونين المغربي ، أدب الاعتراف أو حرية البوح ... هذا الفن النادر في حياتنا الثقافية ، جريدة المغرب اليوم على موقع [http://morocco:today,info/iaataraf,htn](http://morocco.today,info/iaataraf,htn).
- (26) طرحت علي هذه الأسئلة و مثلها من بعض من استشرتهم من أساتذة و باحثين من جامعات مختلفة عن رأيهم في من يخوض في دراسة ادب الاعتراف . و كثير صمت و لم يجب ، فأدركت أنهم أيضا يشيرون إلى الأسئلة ذاتها . فحين كان رأي قليل منهم ، أن في الإجابة عن هذه الأسئلة نكمن أهمية هذا الأدب و مشروعيته الفنية .
- (27) أمل التميمي ، السيرة الذاتية النسائية في الأدب المعاصر ، ص 97.
- (28) شاكر لعبي ، أدب الاعتراف الغائب في الثقافة العربية ، جريدة الصباح على موقع [http : // www.alsabah.com](http://www.alsabah.com)
- (29) أحمد أمين ، فيض الخاطر ، ج 9 (دط)، (دت) ، ص 196.
- (30) علي بركات ، رواد السيرة الذاتية من إفريقيا و عرب ، مجلة العربي، العدد 165 ، أغسطس 1982 ، ص 164 .
- (31) عباس محمود العقاد ، أنا ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط 1، 1982 ، ص، ص، 244، 245 .
- (32) أبو عبد الرحمان بن عقيل، تباريح التباريح ، دار الصحوة للنشر و التوزيع ، الرياض ، ط 1، 1412
- ص، ص ، 125، 126 ، نقلا عن أحمد علي آل مريع ، رؤية إسلامية لأدب السيرة الذاتية ، ص 8 .
- (33) أبو عبد الرحمان بن عقيل ، خواطر حول الترجمة الذاتية في العصور الإسلامية ، مجلة مجمع اللغة العربية ، ص 29، نقلا عن أحمد علي آل مريع ، المرجع السابق ، ص 8 .
- (34) أنيس المقدسي ، الاتجاهات الأدبية في العالم الحديث ، دار العلم للملايين ، دمشق ، ط 7، 1982، ص 249
- (35) هي امرأة خاملة الذكر، ذكرت في الموسوعة البريطانية، دونت اعترافها في عصر النهضة و تحديدا في القرن الخامس عشر ،تحدثت فيها عن مرحلة متأخرة من حياتها ، ذكرت خلالها تفاصيلها الشخصية و تجاربها الدنيوية بأسلوب أثر في الكثير ، و جعل منها شخصية مميزة في ذلك العصر . أنظر : هاني شاكر ، السيرة الذاتية في الأدب العربي ، ص 31.
- (36) علي بركات ، رواد السيرة الذاتية من إفريقيا و عرب ، ص، ص ، 160 ، 161.
- Jacques le carme, L'autobiographie, Armand Colin, éd2, Paris, 1997, P90
- (38) جورج ماي ، السيرة الذاتية ، تعريب محمد القاضي و عبد الله صولة، بيت الحكمة ، قرطاج 1992 ، ص 92، نقلا عن أمل التميمي، السيرة الذاتية في الأدب العربي المعاصر ، ص 63.
- (39) زينب حنفي ، أدب الاعتراف و ضبابية المجتمع على موقع : [http:// www.Hanafi.com](http://www.Hanafi.com).
- (40) جورج ماي ، المرجع السابق ، ص 30 ، نقلا عن أمل التميمي : المرجع السابق ، ص 63.